عقيدة التسليم عند الأنبياء والمؤمنين في القرآن الكريم

م.د. جاسم داود سلمان

تدريسي في كلية الامام الاعظم (رحمه الله) الجامعة

قسم اصول الدين / سامراء

of the Delivery of Prophets and Believers in the Holy Quran (Selected Models)

Dr. Jasem Dawood Slman

College of Imam Azam University / Department of Fundamentals of Religion – Samarra

المقدمة

الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام ديناً، وأتم علينا نعمته، وأوضح لنا السبيل إلى معرفته حقاً ويقيناً، وأمرنا أن نستهديه صراطه المستقيم صراط الذي أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وأمرنا بالتمسك بدعائمه وأركانه والاعتصام بعراه وأسبابه، فهو دينه الذي ارتضاه لنفسه وملائكته وأنبيائه ورسله فبه اهتدى المهتدون واليه دعا الأنبياء والمرسلون.وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، والذي اطلع به وقر الآذان، وجلا به رين القلوب بصقالها، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا قاطع لاتصالها، وعلى آله وأصحابه ومن سار على هديه إلى يوم الدين.**أما بعد**:فإن المرء قد يقلب الفكر، ويستدعي النظر متأملاً في سير الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن تبعهم من صفوة المؤمنين المتقدمين رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم أجمعين، ليتأمل في مزاياهم وخصائصهم، وما الذي أحلهم في هذه المنزلة الرفيعة السامية، فاصطفاهم رب العزة والجلالة لما اصطفاهم إليه.لا شك أن هؤلاء المصطفين توافروا على خصال محمودة، وسجايا رائعة أهلتهم لهذه المنزلة، وقد وجدت من هذه الصفات صفة التسليم التي عبرت عن رسوخ الإيمان وثبوته، ودلت على قوة التصديق وعظمته، فكانت هذه الصفة من الصفات التي انمازوا بها من غيرهم بشكل مميز لافت للنظر. لذا أحببت دراسة هذه الصفة في هذا البحث الموسوم (عقيدة التسليم عند الأنبياء والمؤمنين في القرآن الكريم)، للوقوف على أبرز ملامحها وخصائصها وفضلها.وبالنظر لسعة حجم البحث فقد ركزت على أبرز الومضات فيه، وقد اشتمل على مقدمة، ومبحث تمهيدي في تعريف التسليم، ومبحثين:تناولت في المبحث الأول: التسليم عند الأنبياء (عليهم السلام)، ودرست فيه التسليم عند عدد من الأنبياء (عليهم السلام) انموذجاً في ستة مطالب. وتناولت في المبحث الثاني: تسليم المؤمنين، وقد اشتمل على ما ورد في القرآن الكريم من شواهد على تسليم بعض المؤمنين لله تعالى، فضلاً عن بيان أهمية التسليم بالحث عليه وفضله.

مبحث تمهيدي: في تعريف التسليم

أولاً: التسليم في اللغة: أصله من سلم، والسين واللام والميم دال في معظم على الصحة والعافية، فالسلامة: أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى، ومنه الإسلام، وهو الانقياد؛ لأنه يسلم من الإباء والامتناع[١]. ومن معاني السِّلْمُ: السلام، وقيل: الإسلام، والسِّلْمُ: الصلح يذكر ويؤنث، والسلم: المسالم تقول: أنا سلم لمن سالمني، والسَّلامُ الاستسلام والسلام الاسم من التسليم، والسلامة: أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى[٢]. والإسلام: هو الانقياد[٣]. والتسليم: التوصيل، يقال سلم الوديعة لصاحبها: إذا أوصلها فتسلم ذلك. والتسليم: بذل الرضا بالحكم[٤]. والتسليم: السلام، وسلم المصلي: خرج من الصلاة بقوله: السلام عليكم[٥].

ثانيًا: التسليم في الاصطلاح: عرف التسليم بأنه: "الانقياد لأمر الله وترك الاعتراض فيما لا يلائم استقبال القضاء بالرضا"[٦]."وقيل: التسليم استقبال القضاء بالرضاء. وقيل: التسليم هو الثبات عند نزول البلاء من غير تغيّر في الظاهر والباطن"[٧]. والتسليم بوصفه الانقياد والاستسلام، يتحقق بالانقياد والإذعان للغير؛ لأن من انقاد للغير فقد سلم إليه نفسه وألقى إليه بكل أموره، وأسلم أمره إلى الله أي سلمه كل أموره[٨]. والفرق بين التفويض والتسليم فرق يسير، وهو أن المسلم قد لا يكون راضياً بما يصدر إليه ممن سلّم إليه أمره بخلاف التفويض، والتسليم والتفويض قريبان من الوكالة، فالتسليم والتفويض من التوكل والوكالة[٩].

ثالثًا: التسليم في القرآن الكريم:ورد لفظ التسليم تارة مصرحاً به في القرآن الكريم، وتارة مضمناً معناه، وللاشتراك اللغوي بين التسليم والإسلام، أذكر معاني الإسلام في القرآن الكريم، والتي منها الانقياد، إذ جاء على خمسة أوجه[١٠]:

أحدها: اسم للدين الذي تدين به، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾[١١].

والثاني: التوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿**يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا**﴾[١٢].

والثالث: الإخلاص، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[١٣].

والرابع: الاستسلام، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾[١٤].

والخامس: الإقرار، ومنه قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾[١٥].

المبحث الأول: التسليم عند الأنبياء (عليهم السلام)

هذا المبحث مكرس لدراسة التسليم عند بعض الأنبياء (عليهم السلام) كما ورد في القرآن الكريم:

المطلب الأول: تسليم النبي نوح (عليه السلام): أبى ابن نوح أن يطيع أباه ويركب معه في السفينة ظناً منه أن الجبل سيعصمه من الطوفان،

ورفض توسل أبيه، ولما آيس نوح (عليه السلام) من ابنه تضرع إلى الله تعالى أن ينجيه من الغرق، ﴿**وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[١٦].عن التسليم في هذه الآيات قال ابن عطية: "هذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمه لأمر الله تعالى واستغفاره بالسؤال الذي وقع النهي عليه، والإستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة، وطلبة ملحة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه، وأما السؤال في الأمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا"[١٧].والسؤال الذي يطرح نفسه: ما وجه التسليم هنا؟ ذلك أن نوحاً (عليه السلام) لم يكن يملك أي خيار غير التسليم لمشيئة الله تعالى، أي أنه تسليم إجباري.والجواب عن هذا: أنه لا يشترط في التسليم أن يكون الأمر موافقاً لهوى الشخص، قياساً على التكاليف ففيها مشقة، مثل الصيام والجهاد، إذ فيها مغالبة هو النسف، ورغبته في الراحة والدعة؛ ولكن أن يكيف الإنسان رغبته لمشيئة الله تعالى وأن لا يجد في نفسه أدنى مخالفة أو غضاضة، فقد تحقق التسليم التام.من ذلك قول المصلي في صلاته: (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ)، فهي تسليم لأمر الله عز وجل[١٨]، أي: إن ذاته وحقيقته له مخلصة بريئة من النفاق[١٩].

المطلب الثاني: تسليم النبي إبراهيم (عليه السلام) : قد يكون إبراهيم (عليه السلام) أكثر الأنبياء ارتباطاً بالتسليم، فقد اقترن اسمه بعدد من الآيات التي صرح فيها بلفظ التسليم، منها قوله تعالى: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[٢٠].أي أن إبراهيم (عليه السلام) أخلص دينه لله بالتوحيد، وقيل: خضع وخشع، والإسلام هنا على أتم وجوهه، بمعنى الخضوع والانقياد للمستسلم[٢١]. ولكن أكثر ما عرف من تسليم إبراهيم (عليه السلام) أمران: أحدهما حين ألقي في النار، والأخرى عندما أمر بذبح ولده، وسأتناول هنا إلقاءه في النار، وأتناول ذبح ولده في المطلب الآتي.إذ لما حطم إبراهيم (عليه السلام) الأصنام التي يعبدها قومه، وحوكم بسببها لم يهادن ولم يخضع لطواغيت قومه، بل ثبت على موقفه الرافض لعبادة الأصنام، وكل من هو دون الله تعالى، ولم يهوله أمرهم بإلقائه في النار، بل زاده يقيناً وتمسكاً.قال تعالى: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ**﴾[٢٢]. وبعيداً عن بعض الإسرائيليات أو الأخبار غير الموثقة أو الضعيفة في قصة حرق إبراهيم (عليه السلام)، فقد روى ابن عباس (رضي الله عنهما)، قال: ((حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حِينَ قَالُوا: ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**﴾[٢٣]))[٢٤].إن "تَسْلِيم النَّفس وبذلها والجود بهَا، وَمن جاد بِنَفسِهِ على الله تَعَالَى فَلَا أحد أحسن خلقا مِنْهُ وَلَا أكْرم مِنْهُ، فَلَيْسَ الشَّأْن فِي الْجُود بِالْمَالِ إِنَّمَا الشَّأْن فِي الْجُود بِالنَّفسِ حَتَّى يُسلمهُ إِلَى خالقه"[٢٥]. إن إبراهيم (عليه السلام) كان في أتم حالات التسليم لله تعالى، وهو الرضا بما قدر له من الحرق غير آبه بالموت في أبشع صوره، وهو الموت حرقاً، وعبر هذا الموقف عن شجاعة فائقة، وفي تسليم إبراهيم (عليه السلام) لأمر الله دلالة أكيدة على ثقته بالله تعالى وإيمانه الراسخ، وفي هذا التسليم تطويع النفس وهواها لمرضاة الله تعالى.

المطلب الثالث: تسليم النبي إسماعيل (عليه السلام) : قبل بيان طبيعة هذا التسليم أود أن أشير إلى خلاف كبير بين المفسرين في تحديد هوية الذبيح، أهو إسماعيل أم إسحاق (عليهما السلام)، والذي ترجح للباحث أن الذبيح هو إسماعيل (عليه السلام). ولخص هذا الخلاف ابن كثير ورجح أن الذبيح هو إسماعيل (عليه السلام) فقال: " هذا الغلام هو إسماعيل (عليه السلام)؛ فإنه أول ولد بشر به إبراهيم (عليه السلام)، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل ولد ولإبراهيم (عليه السلام) ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: بكره، فأقحموا هاهنا كذباً وبهتاناً (إسحاق)، ولا يجوز هذا؛ لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا (إسحاق) لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة، وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: وحيد إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً؛ فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار "[٢٦]. لنعد إلى قصة الذبح، وفيها قال تعالى: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢٧].

معنى الآيات: إن إبراهيم (عليه السلام) دعا ربه قائلاً: رب هب لي غلاماً من الصالحين، فقبل الله دعاءه واستجاب له، وبشره بغلام كريم

الخلق حليم، فوهبه له، ونشأ كما ينشأ الغلمان، فلما بلغ درجة أن يسعى مع أبيه في أشغاله، وتحصيل معاشه قال له أبوه: إني أرى في المنام أنى أذبحك، وقد رأى إبراهيم الخليل (عليه السلام) في منامه أنه يذبح ابنه. وأوَّل رؤياه على هذا، وكان ذلك الولد عزيزاً على أبيه؛ لأنه فلذة كبده وإنسان عينه، وقد جاء من الله بعد الدعاء وبشارة الملائكة به، فكان له مزيد فضل، وعلو كعب، ومع ذلك فقد صدع إبراهيم (عليه السلام) لأمر ربه، وسلم لأمر الله تعالى، وعرض الأمر على ابنه الوحيد ليرى ماذا يرى؟ فقال ابنه: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، وهنا تبرز أمام الإنسان معاني الإيمان الصادق والاستسلام الحق والصبر والرضاء بالقضاء والقدر[٢٨].

فلما انقادا واستسلما لأمره تعالى، ولإرادته جل شأنه، أسلم الأب ابنه، والابن نفسه وصرعه إبراهيم (عليه السلام) في الأرض على جبينه، ووضع السكين على حلقه، فنودي أنك فعلت ما أوحينا به إليك يا إبراهيم، وأمرناك به، وهذا هو الاختبار المبين، ففداه الله تعالى بذبح عظيم، قيل: نزل جبريل (عليه السلام) بكبش عظيم؛ فذبحه مكان ابنه[٢٩].إن الإنسان ليحار من عظمة هذا التسليم، أيهما أعظم تسليماً، الأب الذي هم بذبح وحيده، فلذة كبده، أم الابن الذي انصاع لمنام أبيه، وآمن به وسلم نفسه للذبح؟ إن هذا القصة تعبر عن قمة من قمم التسليم لله تعالى، إن لم يكن في القمة فعلاً.

المطلب الرابع: تسليم النبي أيوب (عليه السلام): إن قصة أيوب (عليه السلام) التي اشتهرت بين الأنام للصبر العظيم الذي اتصف به نبي الله أيوب (عليه السلام)، ولكن القصة لا تقف عند حدود الصبر، بل تتعداه إلى مضامين أخرى. فالصبر برأي الباحث موقف يعبر عن حالة الشخص، عن رغبته الحقيقة في الصبر، عن مدى قناعته وإيمانه به، أي أن الصبر انعكاس لقوة إيمان الشخص وبوضوح رؤيته لأهداف الصبر، مثال ذلك: أن الشخص قد يتحمل إساءة كبيرة من أبيه أو من ابنه، ويصبر عليها ولا ينبس ببنت شفة، في حين ينفعل ويثور إن واجه الموقف نفسه من شخص غريب، والموظف ينفعل عند خطأ الموظف الذي يعمل بإمرته، ولكنه يسكت سكوتاً مطبقاً عندما يواجه أضعاف هذا الموقف من رئيسه. فالصبر ليس حالة عبثية بل حالة مرتبطة بثقافة الشخص وقناعته وإيمانه، وهذا ما جسده نبي الله أيوب (عليه السلام)، وذكرت قصته في موضعين من القرآن الكريم: الأول: قوله تعالى: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ**﴾[٣٠]. وقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾[٣١].الضُّرُّ سُوءُ الحالِ، إمَّا في نَفْسِهِ لِقِلّةِ العِلْمِ وَالْفَضْلِ والعِفّةِ، وإمَّا في بَدَنِهِ لِعَدَمِ جَارِحَةٍ ونَقْصٍ، وإمَّا في حَالةٍ ظاهِرَةٍ مِنْ قِلَّةِ مَالٍ وجاهٍ، وقولُهُ: (فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ)، فهو مُحْتَمِلٌ لِثلاثَتِهَا[٣٢].وقوله: (وأنت أرحم الراحمين)، " أي: وأنت أعظم رحمة من كل من يتصف بالرحمة في الجملة، وإلا فلا راحم في الحقيقة سواه جل شأنه وعلاه، ولا يخفى ما في وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها مكتفياً بذلك عن عرض الطلب من استمطار سحائب الرحمة على ألف وجه"[٣٣].لقد كان نداء أيوب (عليه السلام) غاية في اللطف والأدب، ولذا كانت الإجابة آية في التمام والكمال، لقد نادى ربه ولم يسأله شيئاً بعينه من الأهل والعافية وذكر ربه بما هو أهله وبما اتصف به (أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)، فاستجاب له دعاءه، فكشف عنه الضر وردَّ عليه الأهل ومثلهم معهم وجعله ذكرى للعابدين وإماماً من الصابرين.لقد استسلم أيوب (عليه السلام) كلياً لمشيئة الله تعالى، وتعايش مع مرضه وصبر، وما هذا إلا لإيمانه المطلق بالله تعالى، وأنه هو المتصرف في شؤونه والمالك لزمام أموره، وأنه ليست هناك شاردة ولا واردة إلا وهي بعلم الله وتحت سلطان قدرته، لذلك حق له أن يصبر .وذكر المفسرون أن الدودة كانت تقع من جسده فيردها في مكانها ويقول: كلي مما رزقك الله[٣٤].ومع أن هذا الخبر لم يرد مسنداً ولا تعرف صحته من عدمها؛ ولكنه على أي حال يعبر بشكل أو بآخر عن عظم صبر أيوب (عليه السلام) وتسليمه الذي ترك أثره في نفوس الناس، وأنه كان قمة من قمم الصبر والتسليم لقضاء الله تعالى.

المطلب الخامس: تسليم يعقوب (عليه السلام): إن قصة يعقوب بلغت من الشهرة أن صارت مضرباً للأمثال، فبعد أن ذهب إخوة يوسف به وألقوه في الجب، ﴿**وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾[٣٥].

في هذه الآيات تسليم من نمط خاص، فالأب فوض أمره إلى الله تعالى وألزم نفسه الصبر الجميل؛ ولكن الحالة التي تشوش على هذه الفرضية أنّ يعقوب (عليه السلام) كان يعلم كذب أولاده، وأنهم لم يصدقوه القول، فمرارة الفقدان لن يذهب بها الصبر، فالمصير مجهول والقلق مستمر ودائم. وما يؤكد معرفة يعقوب (عليه السلام) بكذب أولاده أن القميص ليس فيه آثار أنياب الذئب أو مخالبه[٣٦].وروي أن يعقوب (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) قال: " ما عهدت الذئب حليمًا؟ أكل ابني، وأبقى على قميصه "، وروي عنه أنه قال: " ما أرى أثرَ سبع ولا طعْنٍ، ولا خرْق

"[٣٧].وهنا أثار الرازي عدة تساؤلات مهمة، ما يتعلق بها بموضوعنا هي:"السؤال الأول: أن بلوغ يعقوب في حب يوسف إلى هذا الحد العظيم لا يليق إلا بمن كان غافلاً عن الله، فإن من عرف الله أحبه، ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شيء سوى الله تعالى، وأيضا القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشيئين، فلما كان قلبه مستغرقاً في حب ولده امتنع أن يقال: إنه كان مستغرقاً في حب الله تعالى.والسؤال الثاني: أن عند استيلاء الحزن الشديد عليه كان من الواجب أن يشتغل بذكر الله تعالى، وبالتفويض إليه والتسليم لقضائه، وأما قوله: ﴿**يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ**﴾[٣٨]، فذلك لا يليق بأهل الدين والعلم فضلا عن أكابر الأنبياء"[٣٩].وأجاب عن ذلك بقوله: " والجواب عن الأول: أن مثل هذه المحنة الشديدة تزيل عن القلب كل ما سواه من الخواطر. ثم إن صاحب هذه المحنة الشديدة يكون كثير الرجوع إلى الله تعالى كثير الاشتغال بالدعاء والتضرع فيصير ذلك سببا لكمال الاستغراق.والجواب عن الثاني: أن الداعية الإنسانية لا تزول في الحياة العاجلة فتارة كان يقول: ﴿**يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ**﴾[٤٠]، وتارة كان يقول: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾[٤١]..."[٤٢].والحقيقة أن هذه الأجوبة غير شافية، ولا تفي بالمقصود، والإشكالات التي أثارتها الأسئلة ما زالت قائمة، والذي عندي أن يعقوب (عليه السلام) سلَّم أمره لله تعالى؛ ولكن غلب عليه الضعف البشري، أو الشوق إلى ولده، ولو سايرنا الرازي في أسئلته وأجوبته، وأن الاستغراق في الله يأبى أن يحزن يعقوب (عليه السلام)، وأن القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشيئين.فالرد عليه أن الأنبياء (عليهم السلام) يحبون نساءهم وأولادهم، ويأكلون ويشربون، وأن هذا لا يعارض الاستغراق الكلي، فمثل هذا الاستغراق الذي زعمه الرازي لا يتحقق إلا للملائكة الذين جردوا من الشهوات، لذلك قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو أتم الخلق تسليماً «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[٤٣].وأعظم أشكال الاستغراق والتسليم برأيي ليس بتجريد البدن من الشهوات، بل مع وجودها، ففيها الجهاد بمكابدة النفس وصولاً إلى مرضاة الله تعالى. ولم يستبعد بعض المفسرين أن يكون يعقوب (عليه السلام) قد أوحي إليه تكذيب أولاده[٤٤]، وعلى هذا فإن مشاعر الحزن التي تلت هذه الحالة هي مشاعر الشوق والقلق؛ ولكن أن تصل الحالة إلى أن يفقد بصره بسبب حزنه بعد الإيحاء عليه أمر مستبعد بالكلية، بل هو من تقلبات النفس البشرية.ويدل على عظم تسليم يعقوب (عليه السلام) أنه لم يفقد الثقة بربه تعالى قط في أحلك الظروف، لذلك قال لبنيه: ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾[٤٥].وعلل ابن عاشور ذلك بقوله: " على أن البكاء من الحزن أمر جبلي فلا يستغرب صدوره من نبي، أو أن التصبر عند المصائب لم يكن من سنة الشريعة الإسرائيلية بل كان من سننهم إظهار الحزن والجزع عند المصائب. وقد حكت التوراة بكاء بني إسرائيل على موسى (عليه السلام) أربعين يوماً، وحكت تمزيق بعض الأنبياء ثيابهم من الجزع. وإنما التصبر في المصيبة كمال بلغت إليه الشريعة الإسلامية"[٤٦].والحقيقة أن التعليل الثاني لا إثبات عليه، وأن الإسرائيليات لا نصدقها ولا نكذبها، ناهيك عما فيها من تحريف، وبكاء قوم موسى لا يعني أنهم على الصواب، فهم قد خالفوا موسى (عليه السلام) في حياته عشرات المرات، فليس مستغرباً أن يخالفه في حياته .

المطلب السادس: تسليم النبي محمد (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) : نحن هنا أمام حالة متفردة، عظيمة بتفردها، شاملة لقممها، فما من مزية لدى نبي من أنبياء الله (عليهم السلام) إلا وتجد نظيرها في شخص رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأبهى صورها، وأعظم معانيها.وهذا الحكم ليس نابعاً من شهادة مجروحة بحب النبي (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)، ولا متحيزة لصدورها من فرد من أفراد امته، وهي لا تجانب الموضوعية؛ لأن حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) معروفة للقاصي والداني بخلاف سير غيره من الأنبياء (عليهم السلام)، إذ لا نعرف عن بعضهم إلا ما أخبرنا به القرآن الكريم؛ ولكن عظمة هذا النبي (صلوت الله وسلامه عليه) خارجة عن هذه التأثيرات بالكلية، لأسباب، منها:

الأول: إننا لم ننطلق من سيرته المدونة ولا من الأحاديث الشريفة في تثبيت حقيقة تسليمه، بل انطلقنا من القرآن الكريم نفسه الذي عرف بإيجازه، لذلك اتحدت مظان الحكم على تسليمه أسوة بغيره من رسل الله (عليهم الصلاة والسلام).

الثاني: إن عظمة شخص رسول الله (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) أمر لم يقرره المسلمون بدافع العصبية لنبيهم، بل أكده المنصفون من الأديان الأخرى، وهذه حقيقة معلومة ليست بحاجة إلى إثبات.

الثالث: إن أية قصة ذكرها القرآن الكريم عن نبي من الأنبياء (عليهم السلام)، كان رسول الله (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) يؤمر بالاقتداء بهم، ولما كان القرآن الكريم ذكر لكل نبي أعظم مزاياه، فهذا يعني أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمر باتباع أعظم مزايا هؤلاء الأنبياء، فإن لم يقتد بهم على أقل تقدير أو يفوقهم في هذه السجايا لكان مخالفاً للأمر الإلهي، وهذا مما لا يعقل، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾[٤٧].و"المراد الاقتداء بهم في جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة من الصبر على أذى السفهاء والعفو

عنهم"[٤٨].

الرابع: إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمر بالتسليم في القرآن الكريم في أكثر من موضع أسوة بغيره من الأنبياء (عليهم السلام)، وهذا يعني تحقق التسليم منه لأمر الله تعالى وإلا كان مخالفاً للأمر الإلهي، من ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾[٤٩].وفي تفسير توجيه الوجه هنا وجهان:"**أحدهما:** أي أسلمت نفسي، ومعنى أسلمت: انقدت لأمره في إخلاص التوحيد له. **والثاني:** أن معنى أسلمت وجهي: أخلصت قصدي إلى الله في العبادة، مأخوذ من قول الرجل إذا قصد رجلاً فرآه في الطريق هذا وجهي إليك، أي، قصدي"[٥٠].والوجه الأول هو التسليم بعينه، أما الوجه الثاني فمؤداه التسليم أيضًا، لأن من أخلص نفسه لشيء، انقاد له طواعية، بل هو أوضح دلالة على التسليم من الوجه الأول، فالتسليم قد لا يكون عن رضا، بل يكون انصياعاً للأمر أو للغلبة، أما الوجه الثاني فإن تحقق الرغبة فيه قائم لا محالة، والرغبة نصف الالتزام.وتسليم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمر مفروغ منه، فقد امر بهذا صراحة في أكثر من موضع في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى: ﴿**لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [٥١]. فهذه الآية تقرر لا كمال تسليمه (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) فحسب، بل تقدمه على من سبقه، ومعنى الآية: "أي المنقادين لما يدعو إليه داعي الله في هذا الدين، لا اختيار لي أصلاً، بل أنا مسلوب الاختيار فيه منقاد أتم انقياد، وهذه الأولية على سبيل الإطلاق في الزمان والرتبة بالنسبة إلى أمته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وفي الرتبة بالنسبة إلى من تقدمه من الأنبياء وغيرهم، وهذا أيضاً من باب الإحسان في الدعاء بالتقدم إلى ما يدعو إليه وأن يحب للمدعو ما يحب لنفسه ليكون أنفى للتهمة وأدل على النصيحة فيكون أدعى للقبول"[٥٢].

المبحث الثاني: تسليم المؤمنين

بعد استعراض بعض النماذج المختارة من تسليم الأنبياء (عليهم السلام)، أذكر بعض النماذج لتسليم المؤمنين من الأمم السابقة، ومن الإسلام، وبعض ما جاء في الحث على التسليم وفضله في المطالب الآتية:

المطلب الأول :تسليم أم موسى: إن أم موسى (عليه السلام) حالة خاصة من حالات تسليم المؤمنين قبل الإسلام، وخصوصيتها في كونها تخالف النزعة البشرية، وتعبر عن التسليم في أسمى صوره، وقد لخص القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾[٥٣].هذه الآيات تبين ما كانت تعانيه أم موسى، ففرعون أمر بقتل الأطفال الرضع، ولم تجد أمامها من وسيلة لخلاص ولدها إلا أن ترميه في البحر، فيصل الطفل إلى آل فرعون، وكيف أن الله جَلَّ وَعَلا هيأ له أسباب النجاة بزرع محبته في قلب امرأة فرعون، ثُمَّ تصف حالة أمه بعد فراق ولدها، فكادت من شدة خوفها عليه أن تذيع أمرها في الناس[٥٤].إن الحالة المألوفة لبعض النساء أن لا تفرط بوليدها، فكثيراً ما تفضل النساء أن يكون مصيرها ومصير ولدها واحد على أن تفرط فيه، أو أن تدفنه بيدها على أن تعيش في قلق وحزن دائمين، فالحزن ينسى، والهم يتبدد، ولكن القلق من مصير مجهول سيظل يراود صاحبه، ولنا في قصة يعقوب (عليه السلام) عبرة، فلم يفقد الألم، ولم يبرحه الألم.لقد استسلمت أم موسى لمشيئة الله تعالى ثقة وإيماناً؛ ولكن وساوس الأم لم تفارقها، والقلق على مصير وليدها لم يبارحها، فأمسك الله تعالى على قلبها لئلا تفضح سر الوليد، فجاء الربط على القلب لترسيخ الإيمان في قلبها. لا شك أنه "بعد أن تتكشف لها الأمور، ستعلم أن ما وعدها الله حقّ، وبهذا يتأكد إيمانها بالله، ويقوى يقينها به، وفي هذا إشارة إلى أن ما يبتلى به المؤمنون الصابرون من أرزاء ومحن، هو تثبيت لإيمانهم، وترسيخ لقواعد هذا الإيمان في قلوبهم، حيث ينكشف لهم وراء كل رزء، وعقب كل محنة، أن ذلك لم يكن إلا عن تدبير الحكيم العليم، وأنهم لو استقبلوا من أمورهم ما استدبروا، لما أقاموها إلا على هذا الوجه الذي أقامه الله ربّ العالمين، وبهذا ينتقلون من حال القلق، والجزع في مواجهة المصائب والمحن، إلى حال التسليم، والرضا، وهذا هو الإيمان في أرفع مقاماته، وأعلى منازله"[٥٥].وهذا تأكيد على أن التسليم الحق إنما هو بمقارعة الأهواء ومغالبتها، وليس بالتجرد منها، وإلا لكان التسليم تحصيل حاصل.

المطلب الثاني: تسليم بلقيس: قصة بلقيس من القصص المعروفة، وبعد أن نقل عرشها وجاءت لزيارة سليمان (عليه السلام)، ﴿**قِيلَ لَهَا**

ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٥٦]. فأعلنت أنها " استسلمت مع سليمان لله طائعة لله رب العالمين"[٥٧]، وحقيقةُ هذا: هو " الاستسلامُ للَّه تعالَى والانقيادُ لطاعتِهِ"[٥٨].وهذا شاهد على تسليم غير المؤمنين لأمر الله تعالى وتفويض الأمر إليه دون اعتراض أو منازعة، بعد أن ترى الآيات، بعيداً عن الكبر وغمط الحق، بل بقلوب ملؤها الطمأنينة والرضا واليقين فالانقياد له سبحانه ليس كأي انقياد.

المطلب الثالث: تسليم الصحابة (رضي الله عنهم) اشتمل القرآن الكريم على عدد من الآيات التي أثنت على حسن تسليم الصحابة (رضي الله عنهم) لمشيئة الله سبحانه وتعالى، ومن الشواهد على ذلك أحزاب الكفار التي حشدت لقتال المسلمين في معركة الخندق أو معركة الأحزاب، فدب الرعب في صفوف المنافقين، وراح المرجفون يطلقون الشائعات التي أريد منها النيل من عزائم الصحابة (رضي الله عنهم) وتوهينهم، وإضعاف هممهم، كما هو شأن المرجفين في كل زمان ومكان.وقد وصف القرآن الكريم ثبات المؤمنين بقوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾[٥٩]. وكان موقف المؤمنين على الضد من موقف المنافقين، فكما" أنّ المنافقين اضطربت عقائدهم عند رؤية الأعداء، فالمؤمنون وأهل اليقين ازدادوا ثقة، وعلى الأعداء جرأة، ولحكم الله استسلامًا، ومن الله قوة"[٦٠]، و" ما زادهم ذلكَ الضيق والحصار والشدة إلا إيمانًا باللهِ وانقيادًا لرسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)" [٦١].ولا يعني التسليم لأمر الله تعالى الانتقاء والاختيار بين هذه القضية وتلك، بل يعني" التسليم الانقياد لأمر الله تعالى كيف جاء"[٦٢]، أي أن ينقاد لما يقتدر عليه أو يوافق هواه، ويعرض عما سواه.ومن ناحية أخرى فالتسليم لله تعالى، لا يعني عدم التسليم والانقياد لرسله، بل أن التسليم والانقياد لهم وعلى وجه الخصوص رسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وطاعته، هو انقياد وتسليم لله تعالى[٦٣].

المطلب الرابع: الحث على التسليم لله تعالى: حث الحق سبحانه عباده على الإيمان به والتسليم إليه، وحفل القرآن الكريم بالشواهد على ذلك، منها:الحث على التأسي والاقتداء بالأنبياء (عليهم السلام) الذين كانوا يدعونه سبحانه ليحظوا بشرف التسليم إليه، من ذلك دعاء إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) عند رفعهما القواعد من البيت الحرام، قالا: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[٦٤]. والمعنى: "أي نكون مسلمين لك لا لغيرك، وهذا يدل على أن كمال سعادة العبد في أن يكون مسلماً لأحكام الله تعالى وقضائه وقدره، وأن لا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سواه"[٦٥].وهذا ما وصى به إبراهيم (عليه السلام) بنيه ويقعوب كما قال تعالى: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[٦٦]، والمعنى: " وتمسَّكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عَهده إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله"[٦٧]. وجاء الحث على التسليم لله تعالى في مقابل تجتب مكائد الشيطان، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾[٦٨]، " ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً أي بجميع الأجزاء والأعضاء الظاهرة والباطنة. ودخول القلب في الإسلام يكون بدخول الإيمان في القلب، ودخول الروح في الإسلام يكون بتخلقه بأخلاق الله وتسليم الأحكام والأقضية لله، ودخول السر في الإسلام بفنائه في الله وبقائه بالله"[٦٩].وجاء الحث على التسليم والإنكار على من خالفه في قوله تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾[٧٠].الاستفهام في الآية للإنكار والتوبيخ، يعني: أفبعد أخذ الميثاق عليهم ووضوح الدلائل لهم أن دين إبراهيم هو دين الله الإسلام تطلبون يا معشر اليهود والنصارى دليلاً على ذلك، في الوقت الذي أَسْلَمَ، أي: خضع وانقاد مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً، والطوع الانقياد والاتباع بسهولة، والكره ما كان من ذلك بمشقة وإباء من النفس[٧١].بين القرآن الكريم فضل التسليم لله تعالى ومنزلته في عدد من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: ﴿**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[٧٢]، " فللمسلم وجهه لله محسنا، جزاؤه وثوابه على إسلامه وطاعته لربه، عند الله في معاده"[٧٣]. كما بينت الآية تحقق الأمان يوم القيامة: "حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب"[٧٤].

الخاتمة

١. التسليم هو الانقياد لأمر الله تعالى، واستقبال القضاء بالرضاء، والثبات عند نزول البلاء.
٢. لا يشترط في التسليم أن يكون الأمر موافقاً لهوى الشخص، بل أن يحقق العبد مرضاة الله تعالى، ويفضلها على هواه.
٣. أتم حالات التسليم لله تعالى، هو النابع من الثقة بالله تعالى.
٤. معنى الآيات: إن إبراهيم (عليه السلام) دعا ربه قائلاً: رب هب لي غلاماً من الصالحين، فقبل الله دعاءه واستجاب له، وبشره بغلام كريم الخلق حليم، فوهبه له، ونشأ كما ينشأ الغلمان، فلما بلغ درجة أن يسعى مع أبيه في أشغاله، وتحصيل معاشه قال له أبوه: إني أرى في

المنام أني أذبحك، وقد رأى إبراهيم الخليل (عليه السلام) في منامه أنه يذبح ابنه. وأوَّل رؤياه على هذا، وكان ذلك الولد عزيزاً على أبيه؛ لأنه فلذة كبده وإنسان عينه، وقد جاء من الله بعد الدعاء وبشارة الملائكة به، فكان له مزيد فضل، وعلو كعب، ومع ذلك فقد صدع إبراهيم (عليه السلام) لأمر ربه، وسلم لأمر الله تعالى، وعرض الأمر على ابنه الوحيد ليرى ماذا يرى؟ فقال ابنه: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، وهنا تبرز أمام الإنسان معاني الإيمان الصادق والاستسلام الحق والصبر والرضاء بالقضاء والقدر(٧٥).

٥. الصبر موقف يعبر عن حالة الشخص، وعن رغبته الحقيقة في الصبر، عن مدى قناعته وإيمانه به.

٦. التسليم لله تعالى لا يعني انعدام الحالة البشرية من ضعف، وأعظم أشكال التسليم ليس بتجريد البدن من الشهوات، بل مع وجودها، ففيها الجهاد بمكابدة النفس وصولاً إلى مرضاة الله تعالى.

٧. جمع النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مزايا أنبياء الله (عليهم السلام) بأبهى صورها، وأعظم معانيها، فكان تسليمه تسليماً تاماً.

٨. التسليم الحق إنما هو بمقارعة الأهواء ومغالبتها، وليس بالتجرد منها، وإلا لكان التسليم تحصيل حاصل.

٩. لا يعني التسليم لأمر الله تعالى الانتقاء والاختيار بين هذه القضية وتلك، بل يعني التسليم الانقياد لأمر الله تعالى كيف جاء.

١٠. حث الحق سبحانه عباده على الإيمان به والتسليم إليه.

١١. ظهر فضل التسليم لله تعالى بالثواب والأمان يوم القيامة.

الهوامش

(١) ينظر: مقاييس اللغة: مادة (سلم) ٣/٩٠.
(٢) ينظر: غريب الحديث للخطابي: ١/٦٩٤؛ الصحاح: مادة (سلم) ٥/١٥٩١؛ النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/٣٩٥؛ لسان العرب: مادة (سلم) ١٢/٢٨٩-٣٠٠.
(٣) ينظر: المصادر نفسها .
(٤) ينظر: المصادر السابقة .
(٥) ينظر: المصادر نفسها .
(٦) التعريفات: ٥٧.
(٧) كشاف اصطلاحات الفنون: ١/٤٣٢.
(٨) ينظر: شرح العقائد النسفية: ١٥٧؛ تحفة المريد: ٥٧.
(٩) الموسوعة الصوفية: ٦٨٦.
(١٠) ينظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: ١٣٦-١٣٧.
(١١) سورة آل عمران: الآية ١٩.
(١٢) سورة المائدة: الآية ٤٤.
(١٣) سورة البقرة: الآية ١٣١.
(١٤) سورة آل عمران: الآية ٨٣.
(١٥) سورة الحجرات: الآية ١٤.
(١٦) سورة هود : ٤٤ – ٤٥ .
(١٧) المحرر الوجيز: ٣/١٧٨. وينظر: البحر المحيط: ٦/١٦٣.
(١٨) ينظر: تفسير الراغب: ١/٢٩٤.
(١٩) ينظر: عمدة القاري: ٣/١٨٨.
(٢٠) سورة البقرة: الآية ١٣٢.
(٢١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢/١٣٤.
(٢٢) سورة الأنبياء: الآيات ٦٨-٧٠.
(٢٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.
(٢٤) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، بَابُ {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} [آل عمران: ١٧٣] الآيَةَ، ٦/٣٩، رقم (٤٥٦٣).
(٢٥) نوادر الأصول: ١/٣٣٤.
(٢٦) تفسير القرآن العظيم: ٧/٢٣. وينظر: المحرر الوجيز: ٥/١٧٨؛ تفسير المراغي: ٢٣/٧٢؛ توفيق الرحمن: ٣/٦٠٧ ، وتبيين الصحيح في تعيين الذبيح : ٣٣ وما بعدها .
(٢٧) سورة الصافات: الآية ١١٠ .
(٢٨) ينظر: التفسير الواضح: ٣/٢١٥.
(٢٩) ينظر: أوضح التفاسير: ٥٨٤.
(٣٠) سورة الأنبياء: الآيتان ٨٣-٨٤.
(٣١) سورة ص: الآيات ٤١- ٤٤.
(٣٢) ينظر: المفردات: ٢٩٣ - ٢٩٤؛ لسان العرب: مادة (ضرر) ٤/ ٤٨٢.

(٣٣) روح المعاني: ١٧/ ٧٩.
(٣٤) تفسير يحيى: ٣٣٣/١؛ تفسير القرآن العزيز: ٩٤/٤؛ النكت والعيون: ٤٦٢/٣؛ تفسير العز بن عبد السلام: ٣٣٣/٢.
(٣٥) سورة يوسف: الآيات ١٦-١٨.
(٣٦) ينظر: الكشاف: ٢/ ٤٥١.
(٣٧) جامع البيان: ١٥/ ٥٨١ ، ولم أعثر عليه فيما بين يديّ من كتب الحديث والأثر .
(٣٨) سورة يوسف: الآية ٨٤.
(٣٩) مفاتيح الغيب: ٥٠١/١٨ ـ٥٠٢.
(٤٠) سورة يوسف: الآية ٨٤.
(٤١) سورة يوسف: الآية ١٨.
(٤٢) مفاتيح الغيب: ٥٠٢/١٨.
(٤٣) المجتبى من السنن: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، ٦١/٧، رقم (٣٩٣٩) (٣٩٤٠)؛ مسند أحمد: ٣٠٥/١٩، رقم (١٢٢٩٢). قال ابن الملقن: "كل رجال هؤلاء في الصحيحين، إلا سلام بن سليمان المزني، قارئ البصرة، فأخرج عنه الترمذي والنسائي. وقال أبو حاتم: صالح الحديث. فهو إسناد صحيح". البدر المنير: ٥٠١/١.
(٤٤) ينظر: النكت والعيون: ٣/ ١٥ - ١٦.
(٤٥) سورة يوسف: الآية ٨٧.
(٤٦) التحرير والتنوير: ٤٣/١٣.
(٤٧) سورة الأنعام: الآيتان ٨٩-٩٠.
(٤٨) مفاتيح الغيب: ٥٦/١٣.
(٤٩) سورة آل عمران: الآية ٢٠.
(٥٠) النكت والعيون: ٣٨٠/١.
(٥١) سورة الأنعام: الآية ١٦٣.
(٥٢) نظم الدرر: ٣٤٠/٧.
(٥٣) سورة القصص: الآيات ٧ – ١٣.
(٥٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٢٧.
(٥٥) التفسير القرآني للقرآن: ٣١٦/١٠.
(٥٦) سورة النمل: الآية ٤٤.
(٥٧) النكت والعيون: ٢١٧/٤.
(٥٨) تفسير ابن رجب: ٧٧/١.
(٥٩) سورة الأحزاب: الآية ٢٢.
(٦٠) لطائف الإشارات: ١٥٧/٣.
(٦١) التفسير المأمون: ١٥٣/٦.
(٦٢) المحرر الوجيز: ٣٣٧/٤.
(٦٣) ينظر: التفسير الوسيط: ١٦٥/٨؛ صفوة التفاسير: ٤٧٨/٢.
(٦٤) سورة البقرة: الآية ١٢٨.
(٦٥) مفاتيح الغيب: ٥٤/٤.
(٦٦) سورة البقرة: الآية ١٣٢.
(٦٧) جامع البيان: ٧٠/٧.
(٦٨) سورة البقرة: الآية ٢٨٠.
(٦٩) غرائب القرآن : ١ / ٥٨٢ .
(٧٠) سورة آل عمران: الآية ٨٣.
(٧١) ينظر: لباب التأويل: ٢٦٥/١.
(٧٢) سورة البقرة: الآية ١١٢.
(٧٣) جامع البيان: ٥١٢/٢.
(٧٤) أنوار التنزيل: ٨٥/١.
(٧٥) ينظر: التفسير الواضح: ٢١٥/٣.